العدد 2825 - السنة العاشرة
الإثنين غرة ذي القعدة 1438 - الموافق 24 يوليو 2017
Monday 24 July 2017 - No.2825 - 10th Year

الحسد أول المعاصي في السماء والأرض

يقول الله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ × لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ × إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ × فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ × فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾... (المائدة الآيات 27: 31).

تشير هذه الآيات إلى أول معصية وقعت في الأرض فبعد أن ذكر الله قصة موسى مع بني إسرائيل ورفضهم دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ذكر قصة ابني آدم.. وذلك لما بينهما من التماثل والتضاد فالتماثل قائم بين القصتين في أن في كلتيهما عدم الرضا بما حكم الله تعالى فإن بني إسرائيل عصوا أمر رسولهم إياهم بالدخول إلى الأرض المقدسة. وأحد ابني آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه لأنه لم يكن من المتقين وفي كلتيهما جرأة على الله بعد المعصية وبنو إسرائيل قالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا وابن آدم قال: لأقتلن الذي تقبل الله منه.

وأما ما بينهما من الضاد فإن في إحدى القصتين إقداما مذموما من ابني آدم على قتل أخيه ومن الأخرى إحجاما مذموما من امتناع بني إسرائيل عن دخولهم الأرض وفي إحداهما اتفاق أخوين هما موسى وهارون على امتثال أمر الله تعالى وفي الأخرى اختلاف أخوين بالصلاح والفساد حيث كان أحدهما قاتلا والآخر مقتولا.

ومما نقل عن التوراة أن أحد الأخوين قابيل كان فلاحا وكان هابيل راعيا للغنم فقرب قابيل من ثمار حرثه قربانا وقرب هابيل من أبكار غنمه قربانا فتقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل وقد حصل ذلك بوحي من الله لآدم وأعلمه أن من قبل قربانه كان صالحا وإن من لم يقبل قربانه كانت له خطايا.

والقصة توحي بأن الذي قبل قربانه لا جريرة توجب الحفيظة عليه وتبيت قتله إذ ليس له فيه يد، (وإنما تولته قوة غريبة تعلو عن إدراك كليهما وعلى مشيئته) فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه لأن خطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة في مجال العبادة والتقرب إلى الله فقال الأخ لأخيه لأقتلنك – فليس هناك دافع ولا مبرر لهذا القول إلا الحسد الأعمى الذي لا يغمر نفسا طيبة، وكان جواب الأخ الطيب أن قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ لأنه يؤمن بأسباب القبول وهي التقوى والإيمان ثم يمضي في توجيه أخيه المعتدي قائلا له ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وإن في هذا القول اللين ما يقضي على الحقد ويهدي الحسد ويسكن الشر ويمسح على الأعصاب المهتاجة ويرد صاحبها إلى حنان الأخوة وبشاشة الإيمان وحساسية التقوى ثم يضيف إليه التحذير والتنذير ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ فصور له إشفاقه من جريمة القتل ليثنيه عنه وليخجله من هذا الذي تحدثه به نفسه فعرض عليه وزر جريمة القتل ليزين له الخلاص من الإثم المضاعف بالخوف من الله.

ولكن النموذج الشرير لا يزال مصرا على جريمته فيحكي القرآن عنه ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إن هذا التذكير والتحذير وتلك المسالمة وهذه الموعظة لم تعهد ولم تنفع في رد تلك النفس الشريرة عن جريمة القتل البشعة وقتل الأخ أخاه وابتكر أول معصية على الأرض ضد أخيه فأصبح من الخاسرين فقد خسر نفسه حيث أوردها موارد الهلاك فلم يهنأ بعد ذلك في حياته بشيء، وخسر آخرته فباء بإثمه الأول وإثمه الأخير.

ومثلت له سوءة الجريمة في صورتها الحية صورة الجثة التي فارقت الحياة وباتت لحما يسري فيه العفن فهي صورة لا تطيقها النفس وشاءت إرادة الله تعالى أن توقفه أمام عجزه وهو القاتل الفاتك أن يواري سوءة أخيه فظهر عجزه أن يكون كالغراب ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

فحينما رأى غرابا يحفر في الأرض ليدفن جثة أخيه الغراب وكان لم ير من قبل ميتا يدفن فندم، ولم يكن ندمه ندم توبة، وإلا لقبل الله توبته وإنما كان ندما ناشئا من عدم جدوى فعلته وما أعقبه من تعب وعناء وقلق.

ولقد وعظ هابيل أخاه ليذكره خطر هذا الجرم الذي سيقدم عليه وأشعره بأنه يستطيع دفعه ولكن الذي منعه هو خوفه من الله تعالى استعظاما لجرم قتل النفس حتى ولو كان القتل دفاعا عن النفس لأنه علم حرمة النفوس ولو كانت ظالمة، ورأى في الاستسلام لطالب قتله إبقاء على حفظ النفوس للإكمال مراد الله تعالى من تعمير الأرض (وقد يكون ذلك في شريعتهم وأما في شريعتنا فإنها تبيح للمعتدى عليه أن يدافع عن نفسه ولو بقتله).

لقد صور مشهد دفن الجثة للقتيل أول مشهد في حضارة البشر وهي من قبيل طلب ستره المشاهد المكروه وهو أيضا مشهد أول علم اكتسبه البشر بالتقليد والتجربة، كما هو أيضا مشهد أول مظاهر تلقي البشر معارفه من عوالم أضعف منه حيث تعلم الإنسان من الطير ومن أجل وجود هذه النماذج البشرية ومن أجل الاعتداء على المسالمين الخيرين الطيبين الوديعين الذين لا يريدون شرا أو عدوانا.

ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبليات المطبوعة على الشر وأن المسالمة والمواعدة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر والحسد عميقي الجذور في النفس من أجل كل ذلك جعل الله جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة بحيث تكون كجريمة قتل الناس جميعا، وجعل العمل على إحياء نفسا واحدة عملا عظيما بحيث يعدل إنقاذ وإحياء الناس جميعا.

إن حق الحياة واحد ثابت لكل نفس فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته، كذلك دفع القتل عن نفس وإحياؤها إنما هو إحياء للنفوس كلها، فما أعظم النفس البشرية التي صانها الله ذلك لأن الآدمي بناء الله ملعون من هدمه إلا ما اقتضع الحسد الذي يدفع أصحابه إلى قتل بعضهم بعضا وإلى قطع ما أمر الله به أن يوصل وإلى الإفساد في الأرض.

ومن هنا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا يجتمع إيمان وحسد في قلب مسلم لأنه لأن أحدهما يوشك أن يخرج الآخر ويبقى هو إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب فما أقبحه من ذنب ومعصية عصى الله بها في السماء حين حسد إبليس آدم وما أبشعه من ذنب في الأرض حيث جعل قابيل يقتل أخاه هابيل.

آية وشرح

الآية 58 من سورة النساء

من الآيات الجامعة للأحكام ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾... سورة النساء الآية 58، وقد وصف القرطبي هذه الآية، بأنها (من أمهات الأحكام، تضمنت جميع الدين والشرع).

هذه الآية الكريمة جاءت عقب آيات سبقتها تتحدث عن أحوال الكفار والمنافقين، كقوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾... سورة النساء الآية 37، وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾... سورة النساء الآية 38.

وتتحدث أيضا عن بعض من صفات أهل الكتاب، كما في قوله سبحانه: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾... سورة النساء الآية 46، وقوله عز وجل: ﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾... سورة النساء الآية 54.

وكل ذلك يشتمل على خيانة أمانة الدين، والعلم، والحق، والنعمة، فبعد أن بين سبحانه شيئا من صفات هؤلاء وأولئك، عطف على ذلك مخاطبا عباده المؤمنين بأداء الأمانة، والحكم بالعدل.

هذا ما نحا إليه الرازي وتابعه ابن عاشور في بيان مناسبة الآية لما سبقها من آيات.

وقد ذكر أبو حيان وجها آخر للمناسبة بين الآية وما سبقها، وهو أن الله سبحانه لما ذكر وعد المؤمنين العاملين الصالحين، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾... سورة النساء الآية 57، نبه سبحانه بعد على هذين الأمرين الشريفين: أداء الأمانة، والحكم بالعدل.

ومهما يكن الأمر، فإن الآية الكريمة أمرت بأمرين رئيسين:

أحدهما: أداء الأمانة، وثانيهما: الحكم بالعدل.

فأما بالنسبة لأداء الأمانة، فالذي اتجه إليه أغلب المفسرين هنا، أن الخطاب في الآية عامّ، يشمل جميع الناس، وأن المقصود بـ(الأمانة) مفهومها العام، الذي يشمل جميع الأمانات، وليس مفهومها الخاص، فهي تشمل الأمانة في العبادات، والأمانة في المعاملات، والأمانة الخاصة، والأمانة العامة، والأمانة مع المسلم ومع غير المسلم، ومع الصديق والعدو، ومع الكبير والصغير، ومع الغني والفقير.

يقول القرطبي بهذا الصدد: والآية «عامة في جميع الناس، فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال، ورد الظلامات، والعدل في الحكومات.. وتتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما، والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى».

ونحو هذا ما قرره الرازي من أن «معاملة الإنسان إما أن تكون مع ربه، أو مع سائر العباد، أو مع نفسه، ولا بد من رعاية الأمانة في جميع هذه الأقسام الثلاثة»، ثم شرع يفصل في معنى الأمانة في كل قسم من هذه الأقسام.

ويؤكد ابن عاشور هذا العموم والشمول، فيقول: «والخطاب لكل من يصلح لتلقي هذا الخطاب، والعمل به من كل مؤتمن على شيء».

وممن قال إن (الأمانة) في الآية عامة جمع من الصحابة، منهم: البراء بن عازب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، قالوا: الأمانة في كل شيء: في الوضوء والصلاة والزكاة والجنابة والصوم والكيل والوزن والودائع.

وروي في هذا المعنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: لم يرخص الله لمعسر ولا لموسر أن يمسك الأمانة.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة ...)، وذكر منهن (أداء الأمانة)، فقيل: يا رسول الله! وما أداء الأمانة، قال: (الغسل من الجنابة، إن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها)، قال الهيثمي: رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده جيد. وهذا يدل على أن المقصود من أداء الأمانة ليس معناها الخاص، بل معناها العام.

وإذا كان أكثر المفسرين قد ذهب إلى أن مفهوم الأمانة في الآية عام يشمل أمانة الدين والدنيا، فإن الطبري اختار أن الخطاب في الآية لولاة الأمور فحسب، قال بعد ذكره للأقوال التي قيلت في الآية: «وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: هو خطاب من الله ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره».

ثم دلل على اختياره بالآية التالية لهذه الآية، غير أنه لم ينف جواز كون الآية عامة في أمانة الدين والدنيا، ولا شك أن حمل الخطاب في الآية على العموم أولى، من حملها على ولاة الأمور فحسب؛ لأن الأصل في خطاب القرآن أن يكون عاما، ولا يُخص إلا بدليل معتبر، يُخرج العموم عن دلالته. كما أن الحمل على العموم أقرب إلى قصد الشرع من وضع التكليف؛ وأيضا فإن مجيء لفظ (الأمانة) بصيغة الجمع ﴿الأمانات﴾، يدل على تعدد أنواعها، وتعدد القائمين بحفظها.

ويتحصل على ضوء ما تقدم، أن المقصود بـ ﴿الأمانات﴾ في الآية العهود التي عُهد بها إلى الإنسان وأمر بالوفاء بها، وهي عهود يتعهد بالتزامها، فتصير أمانات في ذمته.

ومن الآيات ذات العلاقة بموضوع أداء الأمانة، قوله سبحانه: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾... سورة الأنفال الآية 27، وقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾... سورة البقرة الآية 283، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾... سورة الحج الآية 38.

ومن الأحاديث ذات الصلة بموضوع أداء الأمانة، قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)، رواه البخاري.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها) رواه مسلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك) رواه أبوداود والترمذي وغيرهما. وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا إيمان لمن لا أمانة له)، رواه أحمد وغيره.

ومن الآثار المتعلقة بموضوع الأمانة قول ابن عباس رضي الله عنهما: (لم يرخص الله لموسر ولا معسر أن يمسك الأمانة) رواه الطبري.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قوله: (إنه تعالى خلق فرج الإنسان، وقال هذا أمانة خبأتها عندك، فاحفظها إلا بحقها). ذكره الرازي في «تفسيره» من غير إسناد.

وقال ميمون بن مهران: (ثلاثة يؤدين إلى البر والفاجر: الرحم توصل كانت برة أو فاجرة، والأمانة تؤدى إلى البر والفاجر، والعهد يوفى به للبر والفاجر).

أما بالنسبة لما أمرت به الآية من الحكم بالعدل، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، فإن هذا الأمر معطوف على سابقه، وهو يدل على وجوب الحكم بين الناس بالعدل.

أيها الآباء احرصوا على تلك الوصايا

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ سورة لقمان الآيات 12 – 13 وهاتان الآيتان تعرضان لبيان لقمان وأن الله تعالى قد آتاه الحكمة ليشكر لله فضله ونعمه عليه، واختلفت أبرز الأقوال فيه أنه كان نو (وهو لقمان بن باعوراء بن أخت أيوب أو ابن خالته) وقيل كان من أولاد آزر عاش ألف سنة وأدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود فلما بعث داود قطع الفتوى فقيل له: ألا أكتفي إذ كفيت، وكان قاضيا في بني إسرائيل وقد أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة والصواب أنه كان وليا ولم يكن نبيا.

والحكمة هي الصواب في المعتقدات أو الفقه في الدين والعقل وعن ابن عباس رضي الله عنه من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثير التفكر حسن اليقين أحب الله تعالى فأحبه فمَنّ عليه بالحكمة وخيره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق فقال: رب أن خيرتني قبلت العافية وتركت البلاء وإن عزمت فسمعا وطاعة فإنك ستعصمني؛ وزاد: فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم: لمَ يا لقمان؟

قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه المظلوم من كل مكان إن يعن فبالأحرى أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريقه الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلا فذلك خير من أن يكون فيها شريفا، ومن يختر الدنيا على الآخرة نقته الدنيا ولا يصيب الآخرة.

فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلم بها ثم نودي داود بعدها فقبلها ولم يشترط ما اشترطه لقمان (فهوى في الهفوات غير مرة كل ذلك يعفو الله عنه) وكان لقمان يؤازره بحكمه فقال له داود طوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمة وصرف عنك البلاء وأعطي داود الخلافة وابتلي بالبلاء والفتنة وقد سئل: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك؟

فقال: إنه لو أرسل إليّ النبوة عزمة لرجوت فيها العون منه ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحبّ إليّ وقد اختلف في صنعته فقيل كان خياطا، وقيل أنه كان يحتطب كل يوم لمولاه حزمة حطب وقال لرجل ينظر إليه: أن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض.

وقيل كان راعيا فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له: ألست عبد بني فلان؟ قال بلى، قال فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وترك ما لا يعنيني، وقد قال سيده يوما: اذبح لي شاة وائتني بأطيبها مضغتين فأتاه باللسان والقلب فقال له: ما كان فيها من شيء أطيب من هذين؟ فسكت ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له: ألق أخبثها مضغتين فألقى القلب واللسان.

فقال: أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني بالقلب واللسان، وأمرتك أن تلقي أخبثها فألقيت بالقلب واللسان؟ فقال له: هما أطيبها إن طابا وهما أخبثها أن خبثا وقد قال وهب بن منبه قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب، وقد روي أنه دخل على داود وهو يسرد الدروع وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت فلما أتمها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله. فقال له داود بحقّ ما سميت حكيما.

ولقد آتاه الله الحكمة ليشكر الله فشكر فكان حكيما يشكره، والشكر لله طاعته فيما أمر به ويعود أثره على الشاكر لأن الثواب عائد إليه وعندما آتاه الله الحكمة لم يحجبها عن أحد من الناس فكيف بولده الذي هو فلذة كبده وثمرة فؤاده؟ فقد أعطاه خلاصة تجاربه وكان أبا رحيما واعظا رفيقا وهو يوجه ولده إلى ما فيه السعادة في الدنيا والآخرة، وأول حكمه أن نهى ولده عن الشرك بالله الذي هو ظلم عظيم وهو ما جاءت أوامر الشريعة به على لسان الأنبياء والمرسلين لمن أرسلوا إليهم وقرر أن التوحيد هو الركيزة الأولى والأساس الذي يبني عليه كل فلاح.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء الآية 25. ثم تابع أسداء الحكمة لولده بعد توحيد الله ونهيه عن الشرك فجاء بأعظم وصية بعد التوحيد وهي التنبيه لولده على عنصر الرقابة والمراقبة لعلام الغيوب حين قال: يا بني إن أتك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت الله بها إن الله لطيف خبير.

لقد أراد لقمان أن يبين لولده قدر قدرة الله بأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء لأن الخردلة هي التي يقال عنها إن الحبس لا يدرك إلا ثقيلا لأنها لا ترجح ميزانا، ومعناها أيضا أن لو كان للانسان رزق مثقال حبة خردل في هذه المواضع جاء إليه بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه، أي لا تهتم بالرزق حتى لا تشغل به عن أداء الفرائض، وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا وقد روي أن ابن لقمان سأل أباه عن الحبة التي تقع في أسفل البحر أيعلمها الله فراجعه لقمان بهذه الآية.

وروي أن ابنه قال: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فأجابه بهذه الآية فما زال ابنه يضطرب حتى مات ويستمر لقمان الحكيم في وعظ أحب الناس إليه فيوصيه بأعظم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم يتبعه بما يلزمها بقوله واصبر على ما أصابك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يلحقان بما يقوم بهما ضررا فنبهه على الصبر على ذلك وعلى كل ما يلحقه من مصائب الدنيا ثم ينهاه عن الكبر والتعالي على الناس أي لا تعرض عنهم تكبرا مثل البعير الذي يلوي عنقه مما به من داء الصعر ويتبع ذلك بالنهي عن أن يمشي متبخترا مختالا متكبرا، ثم لما نهاه عن الخلق الذميم رسم له معالي الخلق الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال له: واقصد في مشيك واغضض من صوتك.

أي توسط في مشيك بين الابطاء والاسراع ولا تتكلف رفع الصوت لأن الجهر فوق الحاجة تكلف مؤذ تلك هي الوصايا العشر التي جاءت على لسان حكيم مؤمن لأحب الناس لديه وهو ولده ولو أن الآباء ووسائل التربية ودور العلم والإصلاح تمسكت بتلك الوصايا التي وصى بها لقمان ابنه وسمعها رب العالمين وأنزلها قرآن يتلى إلى يوم القيامة لسعدت الدنيا بأهلها وسعد أهلها بها هذه هي الوصايا الرقيقة التي سيقت في مجال الوعظ بلطف ورقة وحنو ليكون لنا فيها أسوة حسنة لمن أراد أن يعظ ويذكر الناس بالله والدار الآخرة

وهو القائل لولده: يا بني ان الدنيا بحر عميق قد غرق فيه كل من كان قبلك فإذا أردت النجاة فيها يا بني فلتكن سفينتك فيها تقوى الله وشراعها التوكل على الله وحشوها الايمان بالله لعلك تنجو يا بني ولا أظنك ناجيا والله الهادي الى سواء السبيل.